

تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر

د. فادية المليح حلواني

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

جامعة دمشق

تلخيص

يستعرض البحث تجليات ثقافة المقاومة في الشعر العربي المعاصر ولبوس فكر المقاومة في كل الأشكال الشعرية بحيث لا يتعد الشاعر عن مشاعر الأمة والمجتمع تجاه الواقع المعاش الذي أصبح الشعر فيه احتفالاً غامراً بالحياة الطالعة من الموت والاحتلال ومبشراً بحياة جديدة فيها التحرير والحريّة والوحدة. وصور المقاومة في التاريخ العربي والثقافة العربية ذات جذور عميقة في هذه الثقافة ولها أشكال من التعبير كبيرة من شعر ونثر بأجناسها الأدبية المختلفة، تعبّر كلّها عن الاعتزاز بالأمة واستنهاض همتها وقوتها وتأكيد وجودها ومكانتها في الحياة.

لثقافة المقاومة أشكال مختلفة في الفعل والتعبير.

والمقاومة عند العرب تعبير عن إرادة الحياة والطموح في تحقيق حضور حر ومستقل وفاعل فهي ليست حالة وقتية، وإنما هي مبدأ حياتي أصيل في عقل ووجدان الإنسان العربي وهي بالتالي مبدأ قائم على تعشق الحرية وإثبات الحضور والفاعلية ورد العدوان والتعامل مع الآخر بإخاء وندية.

وصور المقاومة في التاريخ العربي والثقافة العربية ذات جذور عميقة في هذه الثقافة ولها أشكال من التعبير كبيرة من شعر ونثر بأجناسها الأدبية المختلفة، تعبر كلها عن الاعتزاز بالأمة واستنهاض همتها وقوتها وتأكيد وجودها ومكانتها في الحياة.

وإذا كنا في بحثنا سنركز على الشعر العربي والمقاومة فإن هذا لا يعني أننا نستبعد الجوانب الأخرى من هذه الثقافة أو نقلل من أهميتها. فلقد أصبح لثقافة المقاومة أشكالاً تعبيرية مختلفة في كل الأجناس الأدبية وفي الفنون التشكيلية وفي الصورة والفيديو والمسلسل والأغنية والموسيقى والمسرح والتمثيل وكل الفنون التعبيرية الإيمائية الأخرى. ولعل ذلك يدل على الانتشار وقوة التعبير وعلى مدى أهمية المقاومة في حياتنا العربية المعاصرة وتأثيرها الواسع والعميق يقول سماح إدريس في افتتاحيته في مجلة الآداب البيروتية في عدد أيار وحزيران 2004 (1)

«لعل المؤطر الأساسي لمشروع المقاومة الشاملة هو مؤطر ثقافي بالدرجة الأولى. ذلك لأن نجاحه في هذه المرحلة على الأقل، مرهون بقدرته على إقناع أكبر قدر من الناس بإمكانية تحقيق المقاومة للأهداف الوطنية والقومية. وهو مؤطر ثقافي أيضاً لأنه يستند إلى تخليق جديد لمفهوم العروبة».

في تركيزنا على الشعر لا نكون قد ابتعدنا عن الإطار الثقافي العام للمقاومة. ومن هنا لا يفوتني أن أثنى جهود كلية الآداب والفنون في جامعة فيلادلفيا من خلال مؤتمراتها الثقافية التي تحرص على إقامتها والتي تحولت إلى ندوة ثقافية معرفية تشع بأبحاثها ومناقشاتها ونتائجها على الساحة الثقافية العربية عموماً.

مع تقدير عالٍ جداً في تخصيص موضوع هذا المؤتمر لثقافة المقاومة. وهي الثقافة التي ستؤدي إلى تجديد خطابنا الثقافي العربي، وذلك لأن ثقافة المقاومة هي ثقافة حقيقية جادة وليست ثقافة هامشية هلامية كما يقول د. عاطف العراقي⁽²⁾ وهي معبرة عن المعقول.

يتميز شعر المقاومة في الشعر العربي الحديث بعناصر أساسية هي:

- 1- الإيمان بالشعب والثقة بقدرته على اجتثاث الظلم واليقين المطلق بانتصاره الآتي.
- 2- كما يتميز بتلويحه بين التمرد وطلب الحرية للوطن ولل فرد، بحيث يختلط العام بالذاتي والخاص مستذكّرين في هذا المجال شعر أبي القاسم الشابي:

إذا الشعب يوماً أراد الحياة
فلا بد أن يستجيب القدر
كذلك قالت لي الكائنات
وحدثني روحها المستتر

- 3- كما تميز شعر المقاومة بتكريم الشهادة وإبراز أهمية التضحيات التي قدمها الشهداء ليكونوا منارة تشعل الطريق ويقتدي بها جيل كبير هو جيل المقاومة.

يقول أحمد شوقي في تكريم المجاهد عمر المختار زعيم المقاومة الليبية:

ركزوا رفاتك في الرمال لواء
يستنهض الوادي صباح مساء
يا ويحهم، نصبوا مناراً من دم
يوحى إلى جيل الغد البغضاء
أو كما أنشد خليل مردم بك في استشهاده يوسف العظمة:

أيوسف والضحايا اليوم كثر
ليهنك كنت أول من بداها

وخير الدين الزركلي حيث يتحدث عن مقاومة دمشق لطغيان المحتل:

زحفت تزود عن الديار وما لها
من قوة، فعجبت كيف تزود
والشعب إن عرف الحياة فما له
عن درك أسباب الحياة محيد

أما عمر أبو ريشة فيستخدم استنهاض قومه وحضهم على المقاومة بطرق تحريضية مختلفة تتلاءم ومدرسته الشعرية فيقول:

كم مشينا على الخطوب كراماً
والردى حاسر النواجذ فاغر

والزغاريد في شفاه الغواني تدفع الحر لاقتحام المجازر
 ما حملنا ذل الحياة وفي القوس نبال وفي الأكفّ بواتر
 وهكذا عبر الشعر العربي الحديث على نحو واضح عن التطور الخلاق في النفس العربية
 النزاعة للحرية والكرامة والتحم فيها الشعراء بأبرز قضايا الأمة وأجلّ أمانيتها وفي
 طلبعتها تحرير الأمة من نير الاستعمار والاحتلال، وتوحيد الوطن الممزق.
 فكان الشعر في هذه المرحلة مواكباً للأحداث محرضاً الجماهير على متابعة المقاومة، كما
 كان في جانبه الآخر موثقاً للأحداث بفجائعها وانتصاراتها.
 فكان لكل صوت شعري نبرته المميزة (يدركها المتلقي بعد أن يتعرف عليها ويستمتع بما
 فيها من عذوبة أو قوة من رقة أو رصانة مستقظاً من كل صفة حلاوتها الخاصة ومذاقها
 الجميل) (3)

فها هو الأخطل الصغير (بشارة الخوري) في رثائه⁽⁴⁾ للبطل السوري المقاوم للاحتلال
 الفرنسي إبراهيم هنانو يقول:

سقط السيف بعد طول اضطراب
 من يد المجد أحمر الجباب
 فهوت أمّة عليه، تفديّه
 بمنخوب شيبها والشباب
 أي «أبا طارق» وعهدك بالأنام
 عهد الكفاح والأوصاب
 عزيمة تقطع الحديد، وجسم
 في قميص من الضنا والعذاب
 تتلاقى عليه آمال شعب

بين دفع من دهرها وانجذاب

ومن أجل تحقيق وصول الشعر إلى أكبر عدد من المتلقين اتبع الشعراء مختلف المدارس الشعرية وأشكال الشعر فكانت الأناشيد إحدى هذه الأشكال بوصفها أكثر سهولة عند المتلقي وأوقع موسيقية ولحناً:

يا ظلام السجن خيم إننا نهوى الظلاماً⁽⁵⁾

ليس بعد الليل إلا فجر مجد يتسامى

ونشيد آخر:

يا فرنسا لا تغالي وتقولي النصر طاب

سوف تأتيك ليالي نورها لمع حراب

ومن هذه الأناشيد أيضاً:

بلاد العرب أوطاني من الشام لبغدان

ومن نجد إلى يمن إلى مصر فتطوان

ولم تكن النكبات لتوقف حس الاندفاع نحو المقاومة فكان الشعراء يتبارون في نظم قصائدهم عند النكبات الكبيرة لشحن العزائم ومتابعة النضال وتضميد الجراح وتخفيفها لتكون باعث مقاومة بدل الاستكانة أو الخوف، وهو ما نراه في شعراء الشام بعد نكبة دمشق نتيجة ضرب الفرنسيين لها بالطيران والمدفعية وتدمير مجلسها النيابي وقتل حراسه.

ولعل في قصائد خليل مردم بك، وشفيق جبيري، وخير الدين الزركلي، ومحمد البزم وشعراء المهجر من الشاعر القروي «رشيد سليم الخوري»، وخليل مطران، وشفيق معلوف وغيرهم ما يدل على ذلك الموقف. وإذا ما توقفنا عند قصيدة أمير الشعراء أحمد شوقي (نكبة دمشق) فإننا نلمس هذا الحس، فبعد وصف النكبة وسياسة المحتل الفرنسي يتوجه إلى زعماء سورية محذراً إياهم من بريق الألقاب التي يحاول المستعمر الفرنسي توزيعها عليهم فيقول⁽⁶⁾:

بني سورية اطرّحوا الأمانى والقوا عنكم الأحلام القوا
 فمن خدع السياسة أن تغرّوا بألقاب الأمانة وهي رق
 ويتوقف عند الفداء عاداً إياه المخلص لتحرير الأوطان وهو لب مفهوم المقاومة:
 ففي القتلى لأجبال حياة وفي الأسرى فداء لهم
 إلى أن يقول:

وللحرية الحمراء باب بكل يد مضرجة يدق
 جزاكم ذو الجلال بني دمشق وعزّ الشرق أوله دمشق

ولشعر المقاومة كما للخطاب القومي في الحياة العربية المعاصرة. صور وتجليات بارزة، منها السياسي المباشر والايديولوجي أيضاً. ومنها الإعلامي والحماسي ومنها التمثيلي الفني يظهر في الشعر العمودي (الكلاسيكي) والشعر المنثور أو الحديث المقفى. وإذا كان هناك من تقارب بين تعبير الخطاب الشعري والخطوب فإن حياتنا العربية تعيش الخطوب منذ نهايات القرن التاسع عشر وعلى امتداد القرن العشرين وما تزال، فالخطوب أثرت وفعلت، في الخطاب الشعري فشكّلت كلها حياة المقاومة، وثقافة المقاومة، وشعر المقاومة.

فبرزت في كل مرحلة أصوات شعرية شكّلت رموزاً لحالات إبداعية. نستطيع أن نتلمس فيها الجمالية والخيال المبدع، والصور الفنية واللغة الصافية الصادقة، والنبرة المؤثرة بالرغم من حالة الخطوب والمآسي والآلام. وليس في ذلك تعارض، إنما هي خصوبة الحياة والفكر النير الذي تمتاز به أمتنا العربية وأدبنا وحياتنا الحيوية.

ولقد بقي شعر المقاومة متداخلاً مع شعر التحرر الوطني ومع شعر الوحدة فحين انتصرت الثورة العربية الكبرى إبان الحرب العالمية الأولى كانت تضع هدفاً لها إقامة دولة عربية كبرى على غرار دولة الأمويين والعباسيين لكن المستعمرين المنتصرين انتكصوا على عهودهم وتحالفهم مع الشريف حسين واقتسموا ربوع العرب فجهر

المفكرون والأدباء والشعراء برفضهم المطلق لخطر التقسيم منا فحين عن وحدة الأرض العربية والأمة يقول خليل مردم بك:

بلادنا ويد التقسيم تقلقها كأنها رقعة ينتابها جلم
أكل حاضرة دار للملكة أبعاد ما بينهن الفتر والبصم
ويقول خير الدين الزركلي:

فيم السونى وديار الشام تققسم أين العهود التي لم ترعَ والذمم
وبقي نداء الشعراء قوياً في مواجهة الاستعمار وتحريض الجماهير على مواجهته.
يقول محمد الفيتوري:

الملايين أفاقنت من كراها ما تراها ملاً الأفق صداها
خرجت تبحث عن تاريخها بعد أن تاهت عن الأرض وتاها
حملت أفوسها وانحدرت من روايبها وأغوار قراها
فانظر الإصرار في أعينها وصباح البعث يجتاح الجباها

والملاحظ أن شعر المقاومة والتحرر الوطني في هذه المرحلة التزم القصيدة العمودية فكانت الأقدر تعبيراً عن الالتزام القومي والأعمق تأثيراً في الساحة الشعبية وقد أثبتت هذه القصيدة عبر تاريخها ومن خلال المبدعين في ساحاتها، قدرتها على تحريك الجماهير مستذكرين البيت الشهير لابن الرومي والذي بقي شعاراً للنوار والمقاومين عبر الزمان العربي:

ولبي وطن آليت ألا أبيعهُ وألا أرى غيري له الدهر مالكاً

وقد استمر شعر المقاومة وتصاعد وتعددت أشكاله وطرق تعبيره مع دخول القضية الفلسطينية مرحلة حساسة وحاسمة ولا سيما بعد النكبة الأولى وهزيمة الجيوش العربية وتشرد ملايين الفلسطينيين ولجؤهم إلى الدول العربية والشنات.

لقد نبه الشعر العربي إلى خطر المشروع الصهيوني، وحذّر من المصير الفاجع الذي يتهدّد فلسطين بالضياع، ونذد بالاستعمار البريطاني، وصوّر البطولات والتضحيات الفردية والجماعية في مواجهة العدوان. ومَن مِنَّا لا يذكر الشاعر إبراهيم طوقان وهو يصوّر الفدائي الشجاع في قصيدته المشهورة (7)

لا تسأل عن سلامته روحه فوق راحتيه
بذلته همومه كفناً من ساداته

ويمجدّ الشهيد وتضحياته:

عبس الخطب فابتسم وطغى الهول فاقتم
رابط الجأش والنهى ثابت القلب والقدم
ويتمسك بأهداب وطنه في نشيد أضحى على كل لسان:

موطني، الجلال والجمال والسناء والبهاء في رباك!
والشاعر عبد الرحيم محمود الذي حمل البندقية وقاتل حتى استشهد في معركة «الشجرة»
عام 1948 قارناً القول بالفعل:

سأحمل روعي على راحتي وألقي بها في مهاوي الردى
فإما حياة تسرّ الصديق وإما ممات يغيب العدى

وقد غلب على شعر هذه المرحلة، قبل النكبة، الطابع الاتباعي (الكلاسيكي) في بنائه ولغته، وبرزت فيه النغمة الحماسية الخطابية ليصل إلى هدفه في التثبيح والتحريض وتعبئة الوجدان الوطني والقومي. وحركت أساة فلسطين وجدان الأمة العربية القومي والإنساني فألهمت الأديب كتابات أدبية صادرة عن التزام ذاتي داخلي له وعن عمق انفعاله بأحداث النكبة. واختلطت في هذا الأدب العوامل الوجدانية والوطنية والاجتماعية والإنسانية لتكسبه أبعاداً متداخلة متشابكة، وترفعه إلى صعيد عالمي. ولقد استطاع الأدب شعره ونثره أن يعبر عن هذه التجربة الفلسطينية بكل ما فيها. ويمكن أن نميّز فيه مرحلتين متداخلتين متكاملتين:

أ - مرحلة البحث عن الذات: وقد طغى فيها صوت الشعر على صوت القصة والرواية والمسرحية، وعبرت عن شخصية الفلسطيني اللاجئ المُنتزَع من أرضه، في الخيمة أو المخيم، بعد أن شردته الهزيمة، وفجرت المأساة لديه براكين الحقد على كل شيء، جعلته يبحث عن توازن جديد، وأشعرته بأهمية البحث عن هويّة.

وأهمّ الموضوعات التي عبّر عنها الأدب في هذه المرحلة: الحنين إلى الأرض والوطن، والندم لمغادرة الديار، وصف المذابح والمجازر التي تعرّض لها الشعب الفلسطيني، وصور التشردّ والبؤس، التمسك بالأمل والتصميم على الثأر والعودة، وارتفاع صوت التمردّ والاحتجاج والمطالبة بالثأر عن طريق النضال والمقاومة. وقد اتسم هذا الأدب بنزعة رومانسيّة غلب عليها الحزن واليأس الذي شكّل ردّة فعل عاطفيّة على الواقع المرّ، تطغى عليه الحماسة وارتفاع النبرة الخطابية. ولا يخلو بعضه من فهم للواقع وتشخيص له في جوانبه المختلفة ورسم حلول للخروج منه وإن كان معظمها قد شكّل حلولاً فرديّة ذاتيّة، كما عند غسان كنفاني وسميرة عزام وغيرهما.

ب- مرحلة اكتشاف الذات وتأكيد الهويّة، أو مرحلة النهوض الثوري وعودة الوعي كما يدعوها بعضهم، وذلك منذ منتصف الستينات، مع انطلاق الثورة الفلسطينية، فقد أدت التجربة المرّة للسنوات السابقة إلى نضج الوعي ووضوح الرؤية واليقين بضرورة تجاوز الواقع لصنع المستقبل واستعادة الماضي بتحرير الأرض والإنسان. وفي هذه المرحلة ازداد التصاق الأديب الكاتب بشعبه ونضاله فكتب عن الفعل الثوري، والبنديّة المقاتلة، والعمليات الفدائية.

فكان لنزار قباني صوت وخصوصية.

ولمحمد الفيتوري زمن وأسلوب.

ولمحمد مهدي الجواهري تأثير في إطار مدرسته الكلاسيكية. ولمحمود درويش وسميح القاسم وتوفيق زياد عواملهم الحية الراضة للموت المندفعة نحو الحياة الحرة. ولمحمد عفيفي مطر وأمل دنقل وأحمد عبد المعطي حجازي وصلاح عبد الصبور عذاباتهم الشعرية من أجل حياة أحلى فحاطبوا الناس والمدن والأشياء، فشكّلوا ملامح نسق جديد،

وأفق مفتوح على الآخر أذن بميلاد شعرية جديدة في مصر (تتميز بقدر من التماسك والشفافية تستخدم أدوات التصوير والترميز لتقريب هذه التجربة، وتعميق الوعي المتواصل بها، حتى يصبح في مقدور القارئ (أو المستمع) أن يحدد الموضوع الجمالي للقصيدة ومظاهرة الحيوية) (8)

دون أن ننسى مقاومة التطبيع والتي شكلت امتداداً طبيعياً لفكر المقاومة وحقق التجاوب الشعبي معها تأثيراً ودلالات كبيرة في عمق تكوين فكر المقاومة في المجتمع المصري بشكل خاص والعربي بشكل عام ويدخل فيه، كل أنواع التعبير الشعري بما فيه العامي الذي لا يبتعد عن أصوله العربية وموسيقاه الفولكلوريه.

كما كان لعز الدين المناصرة وعبد الوهاب البياتي وسعدي يوسف وفدوى طوقان ونازك الملائكة وبلند الحيدري حضورهم وتجاربهم الشعرية المترعة بهموم الأمة والمصبوغة بكل ألوان التجديد في الشكل والمضمون. شغلت فضاء الابداع العربي بتميزها وتأثيراتها القوية. وولدت في احيان كثيرة دلالات جديدة معادله لعلميات التخيل التصويري.

وكان للأدب في فلسطين المحتلة صورة بارزة في هذه المرحلة، حيث يواجه الإنسان العربي، يوماً، القمع الصهيوني والاعتقال والتعذيب والإقامة الجبرية والإبعاد وهدم البيوت، وإغلاق المدارس والمعاهد والجامعات وملاحقة الكتّاب والصحفيين، ومصادرة الأراضي وإقامة المستوطنات. وطمس الهوية الثقافية العربية.

لقد استطاع الأدب داخل الوطن المحتل، وبسرعة، تجاوز آثار نكسة حزيران التي تركت بصمات سلبية على الأدب العربي، وبرز أدب امتلك صوته الخاص، أدب مُبدع ولا سيّما في مجال الشعر، تجاوز الفجيرة إلى غنائية متفائلة مشرقة، وعبر عن التمسك بالأرض، ومواجهة التحديّ اليومي للعدو الصهيوني، ورفع راية الصمود والثبات، ومجدّ الفداء والشهادة ووقف مع القضايا العربية والإنسانية، وأكدّ الهوية الوطنية ليبقى للإنسان وجهه العربي الأصيل. وبرزت مع هذا الأدب أسماء شعراء وكتّاب أصبحوا رموزاً لأدب المقاومة: كحمود درويش وتوفيق زيّاد وسميح القاسم وإميل حبيبي وغيرهم. ولا شك أنّ الانتفاضة الشعبية الكبرى التي أبرزت أطفال الحجارة استطاعت أن تعيد التوازن إلى

النفوس البائسة وتمحو كثيراً من الخيبات المتتالية. وسرعان ما انعكست في أعمال أدبية وفنية في مشرق الأرض العربيّة وغربها، تعبيراً عن انفعال الأديب العربيّ بها ووقوفه إلى جانبها، وسرعان ما ظهرت في الأراضي العربية المحتلة وفي الوطن العربي أعمال شعرية كاملة ومجموعات قصصية مع بعض الروايات القليلة. غلب على معظمها الانفعالية السريعة وعدم تمثل روح الانتفاضة في العمق. وهو ما يستحق دراسة وتعمقاً أكبر.

لقد بقي الفعل المقاوم أكبر مما قيل، أكبر من الكلمة أكبر من الشعر والنثر على السواء، بالرغم مما يقال: بأن الشعراء يصنعون من الصغير كبيراً فإن فعل المقاومة بقي أكبر بكثير مما قيل.

أعرض فيما يلي بعضاً من الشعر الفلسطيني المقاوم، وفيما أعرض تدليلاً على التطور الشعري في الفكر والشكل.

يقول الشاعر عبد الكريم الكرمي (أبو سلمى) في قصيدته «سنعود»⁽⁹⁾:

| | |
|-----------------------------|-------------------------------|
| فلسطينُ الحبيبةُ كيف أغفو | وفي عينيّ أطيافُ العذابِ؟ |
| فلسطينُ الحبيبةُ كيف أحيأ | بعيداً عن سهولك والهضابِ؟ |
| تتاديني السّفوحُ مخضباتِ | وفي الأفاق أثار الخضابِ |
| تتاديني مدائنك اليتامى | تتاديني فُراك مع القبابِ |
| غداً سنعود والأجيال تُصغي | إلى وقع الخطأ عند الإيابِ |
| أجلّ سنقبلُ الترب المندى | وفوق شفاها حمرُ الرغابِ |
| نعوّدُ مع العواصفِ داوياتِ | مع البرق المقدّس والشهابِ |
| مع الأمل المجنّح والأغاني | مع النسر المحلّق والعُقابِ |
| مع الفجر الضحوك على الصحارى | نعوّدُ مع الصباح على العُبابِ |
| مع الرايات دامية الحواشي | على وهج الأسنّة والحرابِ |

أما سميح القاسم فيقول في قصيدته المطولة عن الانتفاضة:

تقدّموا تقدّموا

كلُّ سماءٍ فوقكم جهنّمُ

كلُّ أرضٍ تحتكم جهنّمُ

تقدّموا

يموتُ منا الطفلُ والشيخُ

ولا يستسلمُ

تقدّموا

بناقلاتِ جنديكمُ

وراجماتِ حقدكمُ

وهذّوا

وشرّدوا

ويتمّوا

وهدموا

لن تكسروا أعماقنا

لن تهزموا أشواقنا

نحن قضاءٌ مُبرمٌ

تقدّموا

وراء كلِّ حجرٍ كفُّ

وخلف كلِّ عشبةٍ حتفُ

وبعد كلِّ جثةٍ فخٌّ جميلٌ محكمُ

وإن نجبتُ ساقُ

يظل ساعدٌ ومعصمُ

تقدّموا

كلُّ سماءٍ فوقكم جهنّمُ
وكلُّ أرضٍ تحتكم جهنّمُ
تقدّموا!

نلاحظ أن سميح القاسم قد غير الشكل الشعري واتخذ المقطع وحدة أساسية بدلاً من وحدة البيت فكل مقطع لديه جزء معنوي لكنه غير مفصول عن المقاطع الأخرى نظراً لوحدة الموضوع والانطباع والتأثير. كما أن سميح القاسم اتخذ الخطابية وسيلة مفضلة لديه لإيصال رسالته وتحقيق الهدف منها بما تحمله هذه الخطابية من مواجهة مباشرة مع العدو.

كما اتخذ المباشرة في التعبير عن معانيه وأفكاره في الصورة ذات الدلالة المعنوية التي تجمع بين المحسوس والمجرد.

أما الشاعر محمود درويش فهذا نص من ديوانه «عاشق من فلسطين»⁽¹⁰⁾:

عيونك، شوكةٌ في القلبِ
توجعني... وأعبدها
وأحميها من الريح
وأغمدُها وراء الليل والأوجاع... أغمدُها
فيشعل جرحها ضوءَ المصابيح
رأيتك ملءَ ملح البحر والرمل
وكنت جميلة كالأرض... كالأطفال... كالفلّ
وأقسم:

من رموش العين سوف أحيطُ منديلاً

وأنقش فوقه شعراً لعينيك

واسماً حين أسقيه فؤاداً ذاب ترتيلاً

يمدُّ عرائش الأبيك

سأكتب جملةً أعلى من الشهداء والقُبُلِ

فلسطينيةً كانت، ولم تزل!
 فلسطينيةً العينين والوشم
 فلسطينيةً الاسم
 فلسطينيةً الأحلام والهَمَّ
 فلسطينيةً المنديل والقدمين والجسم
 فلسطينيةً الكلمات والصمت
 فلسطينيةً الميلاد والموت
 ويقول توفيق زياد: (11)

1 - الحرية أو الموت

هذي أغنية

للعشرة آلاف سجين

في قلبِ سجونك

ياإسرائيلَ الكبرى

والصغرى..

* * *

هذي أغنية

للعشرة آلاف ربيع

مشتاق للأرضِ السمرا

* * *

هذي أغنية

للأيدي المسحوقتيبالأغلالِ الدمويّة

تتحدى الأغلالِ الدمويّة

لعيونٍ تتوقّدُ خلفَ القضبان

للقاماتِ المنتصبة

في قلب الزنانات الوحشية

تتحدى الزنانات الوحشية

* * *

هذي أغنية

للعشرة آلاف جبين

مرتفع في وجه الموت

وآلات التعذيب الهمجية

تتحدى آلهة البطش

لتبقى

الأرض..

العربية -

عربية!

2 - وطن يدفع الثمن

ياأحبابي العشرة آلاف

صيحتكم تسقط

في أعماق الشعب الصامد

وقفتم ترفع

رأس الشعب الصامد

لن ننساكم.. معكم نحن. سوية

سنمزق ليل العار

سنهدم كل الأسوار

حتى تشرق شمس الحرية

في وطن

3 - قامتنا

بالخواتي العشرة آلاف

هذا قدرُ الأحرارِ فصبراً

أمتاً الكبرى..

تحفرُ للمستعمر،

(فليفهم أيتامُ المستعمر) - قبراً

وتعمد بالنار الحمرا

حتى تبرا

أمتنا الكبرى... الكبرى

قامتها - ليست أقصرَ

يقول فخري الصالح:

«إذا راجعنا حركة تطور القصيدة الفلسطينية وجدنا أن جذور تطور هذه القصيدة العائدة إلى عشرينيات هذا القرن وثلاثينياته تنمي تصوراً عاماً للشعر يصهر التجربة العامة بالتجربة الخاصة فحتى عبث إبراهيم طوقان، وغزلياته الضاحكة، كانت مشتبكة مع قصائده التحريضية وشعره الذي يتخذ من الرسالة التعليمية الوطنية للشاعر غاية الشعر المنشود». وهذا ما حاوله فعلاً كل شعراء المرحلة ووظفه التربويون العرب في مناهجهم ومدارسهم ومحاضراتهم وأناشيدهم المدرسية.

بعد نكسة 1967 صار الوضع مختلفاً وصارت الهزيمة باعثاً نحو البحث عن مجالات أخرى تحول الحلم بالاستقرار في المكان إلى تجربة وجودية كبرى تغذيها الهزائم والنكبات والكوارث والحروب التي أحاطت بالتجربة الفلسطينية. وهكذا كانت المقاومة الفلسطينية كما يقول فخري الصالح أيضاً الرافع المعنوي التي دفعت القصيدة الفلسطينية لاعتناق الرمز التمزوي للأرض وتحويل استعارة الأرض إلى حامل تعبير لرموز الخصب، والتجدد وانتصار الحياة... لقد انصهرت الذات المقاومة بتموز وأصبح الشعر احتفالاً غامراً بالحياة الطالعة من الموت. وهكذا وبالرغم من أن شعر المقاومة والتحرر والوحدة قد طبع الشعر العربي عامة إلا أن ذلك لا يعني أن هذا الشعر لم ينفقت إلى

شجون الحياة اليومية وتفاصيلها الصغيرة فكان شعر الحب والغزل والوصف والشوق والحنين.

فالإنسان العربي بعامة والفلسطيني بخاصة هو «إنسان بكل مشاعره الإنسانية» كما يقول الشاعر الدكتور عز الدين المناصرة (12) ولو أنه بقي مسكوناً بهاجس الأرض المحتلة وعذاب اللجوء والاحتلال والتجزئة والاستكبار الإسرائيلي والضعف في السياسة العربية.

ومما يجدر بيانه أن الكثير من الشعراء قد مزجوا التجربة القومية بالشعور العاطفي في غير تكلف كما فعل عبد الكريم الكرمي أبو سلمى في قصيدته «أطياف الوطن» (13)

أطل الفجر من عينيك ما أروعها طلة

أرى فيها خيال اللد والكرمل والرملة

وموج الشاطئ الغربي في عكا أرى ظله

أرى في أفقها وطني فأطبعه على قبله

لقد حملت لي العينان مالم أستطع حمله

على شففتيك يا سمراء أخبار وأسرار

وكيف؟! .. ونحن في العالم يا سمراء أشعار

عليها من لظى التشريد والأدمع آثار

وقد كانت لنا دنيا وكان المجد والغار

ونحن اليوم.. لا وطن ولا أهل ولا دار

وفي هذه المزاجية التي يبدو الانتقال فيها طبيعياً غير مفتعل يشعر المتلقي أن الشعور القومي لدى الشاعر أصيل لا بل هو جزء من تكوينه. إذ إن فقد الحبيب ليس ببعيد يشبه

فقد الوطن فالحبيب والوطن جزءان متكاملان عند الشاعر وعند العربي بوجه عام.

إن دراسة واقع الشعر العربي الحديث المقاوم تدلنا على تطور هذا الشعر العربي في أشكاله وتعبيره ولغته في زمن عربي حافل بالأزمات والقمع والاضطهاد والاحتلال والتجزئة والوهن. وبالرغم من ذلك فإن أصوات الشعراء بقيت تمثل روح الأمة المقاومة وبقي الشعراء يمثلون قمة الشعور الحساس الصادق المرهف فحققوا بذلك ارتقاء لمفهوم

الشعر وتطوراً في فنه مع ملاحظة أن الشكل التقليدي هو الشكل الذي غلب على هذا الشعر بحيث بقي شعراء التجديد في شعرهم أكثر رومانسية كما عند صلاح عبد الصبور. وإذا ما حاولنا البحث عن الأسباب أمكننا ارجاع ذلك إلى الثقافة العالمية لشعراء هذه الموجة وبالتالي اهتمامهم في القضايا الاجتماعية العامة على حساب القضايا القومية وقضايا المقاومة. ولو أن شعراء الموجة المعاصرة ولا سيما في مصر العربية من خريجي المدرسة القومية حاولوا المزج بين ثقافتهم العامة وانتمائهم القومي كما نستطيع رؤيته عند أمل دنقل في قصيدته «مقتل كليب»

هي الشمس.. تلك التي تطلع الآن؟

أم أنها العين – عين القتل – التي تتأمل شاخصة

دمه بترسب شيئاً فشيئاً

ويخضر شيئاً فشيئاً

فتطلع من كل بقعة دم: فم قرمزي

وزهرة شر

وكفان قابضتان على منجل من حديد؟!

* * *

هي الشمس؟ أم أنها التاج..

هذا الذي ينتقل فوق الرعوس إلى أن تعود..

إلى مفرق الفارس العربي الشهيد؟!

* * *

أقول لكم: أيها الناس.. كونوا أناسا

هي النار، وهي اللسان الذي يتكلم بالحق،

إن الجروح يطهرها الكي،

والسيف يصقله الكير،

والخبز ينضجه الوهج،

لا تدخلوا معمدانية الماء،

بل.. معمدانية النار

كونوا لها الحطب المشتهي

والقلوب: الحجارة

كونوا..

إلى أن تعود السماوات زرقاء

والصحراء بتولا

تسير عليها النجوم محملة بسلال الورد

* * *

أقول لكم: لا نهاية للدم!

هل في المدينة من يضرب بالبوق..

ثم يظل الجنود على سرر النوم؟

هل يرفع الفخ من ساحة الحقل..

كي تطمئن العصافير؟

إن الحمام المطوق لا يقدم بيضته للثعابين..

حتى يسود السلام

فكيف أقدم رأس أبي ثمننا؟

من يطالبني أن أقدم رأس أبي ثمننا

لتمر القوافل آمنة،

وتبيع بسوق «دمشق» حريرا من الهند

أسلحة من «بخارى»

وتبتاع من «بيت جالا» العبيد؟!!

وبعد فهل نستطيع أن نعد الشعر العربي المقاوم جزءاً من الأيدولوجيا وهل نستطيع أن

نقول إن عصر الشعر أو زمن الشعر ما زال مستمراً أو قائماً؟

إنني استطيع القول إن شعر المقاومة هو شعر الحياة العربية المعاصرة وهو بالتالي نبض الأمة المرافق لحالها الشاعر بعذاباتها المتطلع نحو أمنيتها وأهدافها ومهما يحاول البعض إشغالنا في معارك جانبية فلقد بقيت المقاومة هي العنوان والرمز والأمل عبرت. عن وحدة الأمة وعن قوتها على تجاوز الأزمة والحدود والقيود وبقي الشعر رؤيا الإنسان العربي الحديث في شكله الفني وفي صوته الموسيقي المرهف والمؤثر والصادق فحركة الشعر لا يمكن أن تنفصل عن حركة المجتمع وبهذا فقد حقق الشعر العربي المعاصر ممارسة عالية للوعي الوطني والاجتماعي والفني بأن معاً.

الهوامش

- 1- مجلة الآداب - بيروت - العدد 6،5 - 2004.
- 2- د. عاطف العراقي - دور الفكر المستنير في معركة الحرية - مجلة عالم الفكر - المجلد 33 - كانون الثاني وآذار - 2005 - الكويت - ص 195.
- 3- صلاح فضل، نبرات الخطاب الشعري ص 7 مكتبة الأسرة 2004 القاهرة.
- 4 - الأخطل الصغير - دار الكتاب العربي - بيروت - ط4 - ص. 226
- 5 - ينسب خير الدين الزركلي في الأعلام هذا الشعر للطبيب الشاعر خالد محمد الخطيب وقد أنشده خلال وجوده في سجن أرواد مع مجموعة من الوطنيين السوريين، وقد حكم عليه الفرنسيون بالإعدام فلجأ إلى مصر والحجاز وفلسطين ثم عمان في الأردن التي بقي فيها حتى وفاته حيث نقل نعشه إلى بلده حماه في سورية - انظر الأعلام للزركلي - مجلد2 - جزء 2 - ص. 298
- 6 - الشوقيات - أحمد محمد الحوفي - دار نهضة مصر- القاهرة - 1979 - ج 1 - ص. 348
- 7 - ديوان إبراهيم طوقان - دار الآداب - بيروت ط2 1966
- 8 - د.صلاح فضل . المصدر المذكور ص45
- 9 - عبد الكريم الكرمي - الأعمال الكاملة - بيروت - 1978.
- 10 - محمود درويش - ديوان عاشق من فلسطين - بيروت - 1965.
- 11- من ديوانه (اغنيات الثورة والغضب)
- 12- من مقابلة مع الشاعر في برنامج روافد التلفزيوني في قناة العربية عام 2004.
- 13- كتاب العربي - قوافي الحب والشجن - 42-15/10/2000 ص 40 الكويت